

قرر اهل السياسة عندنا استعادة الذكرى الخامسة والثلاثين للحرب الاهلية بمباراة ودية في كرة القدم، ورفعوا شعار "كلنا فريق واحد". جرت المباراة من دون جمهور، مع الإشارة إلى أن غالبية المباريات الكروية التي تشهدها الملاعب اللبنانية تجرى من دون جمهور منعاً للاحتكاك والتقاتل، منذ ما يقارب الخمس سنوات. ربما لم ينتبه اللاعبون الـ"VIP" الى هذا التفصيل. او لعلمهم يعرفون ان لبنان يضم جماهير لا يمكن جمعها في مكان واحد حول لعبة رياضية. المسؤولية لا تقع هنا على عاتقهم وحدهم، انما هذه الجماهير مسؤولة ايضاً عن تشرذمها وانسحاقها خلف الفرائز لتمعن في القضاء على مستقبلها ومستقبل اولادها تحت سماء هذا البلد. ايضاً، ربما لم ينتبه سياسيوننا الى علاقة ذكرى 13 نيسان وبشراة الحرب التي اطلقتها عام 1975، بحكاية نشوء لعبة كرة القدم، كما يرويها المؤرخون البريطانيون، وذلك وفق واقعة تاريخية تتلخص في ان الدنماركيين احتلوا انكلترا من 1016 الى 1042 بعد الميلاد، فحاربهم الانكليز في معركة دامية وتمكن جنودهم من الانتصار وقطع رأس القائد الدنماركي، وتناقلوه بأقدامهم مثل الكرة. صارت الذكرى بعد ذلك تقليداً قومياً، وعلامة الثأر والانتقام، وإن تم استبدال الرأس بجسم كروي من جلد البقر كان يتقاذفه اللاعبون بين اقدامهم في الشوارع. وكانوا يسمون لعبتهم آنذاك "ركل رأس الدنماركي"، وسميت بعد ذلك "كرة القدم".



لوحة لعلي شمس.

لاعبو "كلنا فريق واحد" لم تخطر في بالهم بالتأكيد، هذه الحكاية الفظيعة، لذا سدّدوا وضحكوا ولم يوفروا بعضهم بعضاً من التراشق الكلامي. اعتبر الشيخ سامي الجميل بعد تسجيله هدفين ان استراتيجيا الحاج علي عمار الدفاعية "عاطلة جداً"، فردّ الحاج موضعاً ان "الاستراتيجية الدفاعية" المصنّوة والمنتظرة طاوله الحوار "موجهة ضد اسرائيل فقط". يعني بالخط العريض: لا تناقشوا "سلاح حزب الله" او ربما اي سلاح آخر. يكفيكم اننا لعبنا معكم، لأنكم تعرفوننا عندما لا نلعب. وحتى لا يحمل "الغلب" قال: "ولم نرغب في أن تخرج حكومة الحريري خاسرة".

دمهم خفيف ممثلو الشعب عندنا، فهم منتصرون كفريق واحد كيفما حار ودار بنا زماننا. هذا الفريق مستمر منذ 13 نيسان 1975 مع تغيير طفيف في الوجوه بحسب متطلبات المرحلة. الطارئ عليهم اذا كان لا يجيد اللعبة الاصلية، لن يستمر طويلاً. قد يتركونه يربح قليلاً ويضحك قليلاً، لكن للصبر حدوداً. الا ان هذا الامر لا يمنع ان احتفالهم بالذكرى مبتكر، ولا بد أن تكون الوكالات العالمية قد نقلت صورهم وأظهرت روحهم الرياضية التي تمنحهم مرونة ليتسلّوا ويسلّونا عندما يشاؤون، ويهيجوا الشوارع والبشر ويرفعوا المتاريس، ايضاً عندما يشاؤون.

لكن حكاية "رأس الملك الدنماركي" لا بد ان تخطر في بال الذين يتابعون خيمة اهالي المفقودين المنصوبة منذ خمس سنوات قبالة مبنى الامم المتحدة. واذا اردتم مزيداً من الدقة، فدعوا للاعبين يسدّدون اهدافهم من دون جمهور يصفق، وانزلوا الى وسط البلد. الافضل ان تنصتوا قليلاً لتسمعوا صوت اسعد الشفتري، أحد رموز هذه الذكرى، وأول "التائبين" عن الحرب. اسمعوه وهو يقدم الاعتذار الى عدد من أهالي المفقودين. يقول لهم: "إني مسؤول عن بعض الضحايا المفقودين. إنما ما عدت أعرفهم ولا أذكر أسماءهم بعد هذه السنين الطويلة. قد أعرف القليل عن مكان وجود البعض". ويضيف: "حاولت المساعدة في ثلاث حالات فردية لمفقودين. وتوقفت عن البحث لأسباب عدة، منها النسيان بسبب مرور الزمن، وتوقف الذاكرة بسبب هول الفعل، والخوف من التشهير الفردي أو الجماعي ومن الملاحة القضائية، كذلك من الانتقام". ويشير الى ان "هناك 17 ألف مفقود، وإذا كان الرقم الرسمي صحيحاً، فهؤلاء لم يرموا أنفسهم طوعاً في الوديان والآبار والبحر والمقابر الجماعية. تعالوا يرافقي إلى أي جهة انتميتم، أحزاباً وتنظيمات ومناطق، نصح ولو القليل القليل مما أتت عليه الحرب أو ما فعلناه. القتل خلال الحرب أو السلم خطيئة، أما السكوت عن المقابر الجماعية فهو شر أعظم. علينا واجب مساعدة الأهل في معرفة مصير الأحباء".

كذلك يمكنكم ان تسمعوا رئيسة لجنة أهالي المفقودين والمخطوفين وداود حلواني تطالب "جميع المسؤولين الذين شاركوا في الحرب الأهلية بالاجتماع والعمل لكشف مصير المفقودين، لأن لأهاليهم الحق في معرفة مكان دفن أولادهم". وتقول: "عليهم أن يفتحوا ملف الحرب ويطلعوا الرأي العام على المعلومات التي يملكونها. فنحن لا نحمل طرفاً واحداً مسؤولية القتل والإخفاء القسري". حلواني ترفض ان ترى الحرب الأهلية في لبنان ذكرى، ذلك لأنها واقع مستمر لم ينته ما دامت هناك شريحة لا يستهان بها من اللبنانيين لا تعرف مصير مفقودها. وهي تستغرب كيف يمكن البلد أن يعيش الحرب والسلم في آن واحد. كما انها تعرف ان اللبنانيين لا يزالون حاضرين ليطارباوا. وتعرف ان هذه الجهوزية تمظهرت في السابع من ايار 2008، عندما عادت الحواجز الميليشيوية إلى الشوارع وأوقفت الناس لتسألهم عن هوياتهم. هي تعرف ونحن نعرف انه في مواجهة شعار "تندكر حتى ما تنعاد" الذي ترفعه لجنة أهالي المفقودين، "هناك من يريد لنا ان ننسى ونعيد الحرب. وما يحصل في لبنان لا يشبه ما حصل في أي بلد شهد حرباً. لا أحد يشارك في حرب تخلف كل هذه الجرائم، ومن ثم يتسلم موقعاً رسمياً ويمسك بالسلطة ويقود مسيرة السلم. كيف تتركب هذه المعادلة؟ وكيف يدين بعض من شاركوا في الحرب بعضهم الآخر بمثل ما ارتكبت ايديهم؟".

ليس صحيحاً "كلنا فريق واحد". وليس صحيحاً اننا كلنا ضحايا فريق او فرقاء. نحن مشاركون في لعبة "رأس الملك الدنماركي"، فقط لأننا صامتون ونحاول الاستمرار في حياتنا.

الصحيح يكمن في الوجوه التي جعلتها "أمم" الى مبنى "سيتي سنتر" وعرضتها بين الجدران التي تختزل الحرب. عدد هذه الوجوه ستمئة من اصل 17 ألف مفقود، ناهيك بالذين سقطوا منذ ذلك التاريخ حتى تاريخه. عنوان الوجوه: "... ولم يعودوا" ■